(٦)

نهاية كعب بن الأشرف

وكان من بني طيء ثم أحد بني نبهان؛ ولكن أمَّه من بني النَّضير. هكذا ذكره ابن إسحاق قبل جلاء بني النضير، وذكره البخاريُّ والبيهقيُّ بعد قصة بني النَّضير، والصَّحيح ما ذكره ابن إسحاق فيما يأتي؛ فإنَّ بني النَّضير إنَّما كان أمرُها بعد وقعة أحد، وفي محاصرتهم حرمت الخمر.

قال البخاريُّ في صحيحه: "قَتْل كعب بن الأشرف": حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: «**من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله؟**» فقال: محمد بن مسلمة. فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم». قال: فَأْذَنْ لي أن أقول شيئاً. قال: قل. فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سَأَلَنا صدقة، وإنَّه قد عنَّانا، وإنِّي قد أتيتُك أستسلفك. قال: وأيضا والله لتملنه. قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء بصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا. قال: نعم ارهنوني. قلت: أيُّ شيء تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم. فقالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم. فقالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن (بوسق)[1] أو وسقين! هذا عار علينا؛ ولكن نرهنك اللأمة.

---

(١) وسق: حمل البعير.

قال سفيان: يعني السلاح. فواعده أن يأتيه ليلا فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة؛ فدعاهم إلى الحصن، فنـــزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ وقال غير عمـــرو: "قالت: أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم". قال: إنما هو أخي محمـــد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة: إن الكريم لو دعي إلى طعنـــه بليـــل لأجاب. قال: ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلان فقال: إذا مـــا جاء فإني مائل بشعره فأشمه فإذا رأيتموني استمكنت مـــن رأســـه فدونكم فاضربوه. وقال: مرة: ثم أشمكم. فنـــزل إليهم متوشِّـــحاً وهو ينفخ منه ريح الطِّيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحا أطيـــب. وقال غير عمرو: "قال: عندي أعطر نساء العرب وأجمل العرب". قال عمرو: فقال: أتأذن لي أن أشمَّ رأسك؟ قال: نعم. فشـــمَّه ثم أشم أصحابه، ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم. فقتلوه، ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه.

وقال محمد بن إسحاق: كان من حديث كعب بن الأشرف وكان رجلا من طيء ثم أحد بني نبهان وأمه من بني النضير أنه لمـــا بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة قال: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لـــبطن الأرض خير من ظهرها. فلما تيقن عدو الله الخبر خرج إلى مكة فنـــزل على المطلب بن أبي وداعة بن صبيرة السهمي وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف فأنـــزلته وأكرمتـــه وجعل يحرض على قتال رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ويندب من قتل من المشركين يوم بدر.

فذكر ابن إسحاق قصيدتَه التي أوَّلُها:

طحنـــت رحـــى بـــدر لمهلـــك أهلـــه
ولمثـــــل بـــــدر تســـــتهل وتـــــدمع

وذكر جوابها من حسان بن ثابت – رضي الله عنه – ومـــن غيره، ثم عاد إلى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين ويهجو الـــنبي ﷺ وأصحابه.

وقال موسى بن عقبة: وكان كعب بن الأشرف أحـــد بـــني النضير أو فيهم؛ آذى رسول الله ﷺ بالهجاء وركـــب إلى قـــريش فاستغواهم، وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أناشدك، أدينا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه! وأيُّنا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؛ إنا نطعم الجزور الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبت الشمال. فقال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلا. قال: فأنـــزل الله على رسوله ﷺ: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِـــنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا**﴾ [النساء: ٥١-٥٢]، وما بعدها.

قال موسى ومحمد بن إسحاق: وقدم للمدينة يعلن بالعـــداوة ويحرض الناس على الحرب ولم يخرج من مكة، حتى أجمع أمـــرهم على قتال رسول الله ﷺ وجعل يشبِّب بأم الفضل بنـــت الحـــارث وبغيرها من نساء المسلمين. قال ابن إسحاق: فقال رســـول الله ﷺ كما حدثني عبد الله بن المغيث بن أبي بردة: «**من لابن الأشرف؟**» فقال له محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول

الله أنا أقتله. قال: «**فافعل إن قدرت على ذلك**»، قال: فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق نفسه، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له: «**لم تركت الطعام والشراب؟**» فقال: يا رسول الله قلت لك قولا لا أدري هل أفي لك به أم لا. قال: «**إنما عليك الجهد**». قال: يا رسول الله، إنه لابد لنا أن نقول، قال: «**فقولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك**». قال: فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وقش أحد بني عبد الأشهل والحارث بن أوس بن معاذ أحد بني عبد الأشهل، وأبو عبس بن جبر أخو بني حارثة، قال: فقدموا بين أيديهم إلى عدو الله كعب سلكان بن سلامة أبا نائلة، فجاءه فتحدَّث معه ساعة فتناشدا شعرا– وكان أبو نائلة يقول الشعر– ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني، قال أفعل.

قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا. فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول. فقال له سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك تحسن في ذلك؟ قال: ترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إن معي أصحابا لي على مثل رأي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما

فيه وفاء، وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاؤوا بها. فقال: إن في الحلقة لوفاء. قال: فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم عند رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: فحدثني ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال: «**انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم**».

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته وهو في ليلة مقمرة، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: أنت امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة، قال: إنه أبو نائلة لو وجدني نائما ما أيقظني. فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشر. قال: يقول لها كعب: لو دعي الفتى لطعنه أجاب. فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم. فخرجوا فمشوا ساعة، ثم إنَّ أبا نائلة شام يده في فود رأسه ثم شم يده فقال: ما رأيتُ كالليلة طيباً أعطر قط. ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها، فأخذ بفودي رأسه ثم قال: اضربوا عدوَّ الله! فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئا. قال محمد بن مسلمة فذكرت مغولا[1] في سيفي فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، قال: فوضعته في ثُنته ثم تحاملتُ عليه حتى بلغت

(١) مغول: نصل طويل.

عانته فوقع عدو الله، وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسه؛ أصابه بعض سيوفنا. قال: فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد ثم على بني قريظة ثم على بعاث حتى أسندنا في حرة العريض وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه، فجئنا به رسولَ الله ﷺ آخرَ اللَّيل وهو قائم يصلي، فسلَّمنا عليه، فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا، ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدوِّ الله، فليس بها يهوديٌّ إلا وهو خائف على نفسه.

قال ابنُ جرير: وزعم الواقديُّ أنَّهم جاؤوا برأس كعب بن الأشرف إلى رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: وفي ذلك يقول كعب بن مالك:

فغودر منهم كعب صريعا
فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علته
بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دس ليلا
إلى كعب أخا كعب يسير
فماكره فأنزله بمكر
ومحمود أخ ثقة جسور